

تمثيلات الآخر اليهودي في الرواية العربية المعاصرة: رواية "الديوان الإسبرطي" لعبد الوهاب عيساوي أنموذجا

Representation of the Jewish other in the contemporary Arab novel: The novel "The Spartan Divan" by Abdel-Wahab Al-Issawi as a model

نذير بيبي

Na.bibi@univ-setif2.dz

مخبر السرديات والأنساق الثقافية

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

تاريخ النشر: 2022/06/16

تاريخ القبول: 2022/06/09

تاريخ الاستلام: 2021/10/27



ABSTRACT:

مُلَحَّصُ الْبَحْثِ

The contemporary Arab novel was concerned with the relationship of the Arab self with the other, so it asked questions related to identity and belonging, and looked at the extent to which the self coexisted with the other in light of difference, and the interest in the personality of the Jewish other came because the Jews were and still are part of the social fabric of Arab countries.

The research shed light on the representations of the image of the Jew in the novel "The Spartan Divan" by Abd al-Wahhab Isawi, which depicted an aspect of the lives of the Jews of Arab countries and revealed their position on the Western occupation. The novel also sought to reveal the relationship of the Jews with Arab Muslim societies, and presented a stereotype of the personality of the Jew based on. This is based on historical events dating back to the last years of the Ottoman rule in Algeria and the beginning of the French occupation.

Key words: representasion, the Jew, the self, the other, the Arabic novel

اهتمت الرواية العربية المعاصرة بعلاقة الذات العربية مع الآخر، فطرحت أسئلة متعلقة بالهوية والانتماء، وبحث عن مدى تعايش الذات مع الآخر في ظل الاختلاف، وجاء الاهتمام بشخصية الآخر اليهودي نظرا لأن اليهود كانوا ولا يزالون يمثلون جزءا من النسيج الاجتماعي للبلدان العربية، وقد سلطت هذه الورقة البحثية الضوء على تمثيلات صورة اليهودي في رواية "الديوان الإسبرطي" لعبد الوهاب عيساوي، والتي صورت جانبا من حياة يهود البلاد العربية وكشفت موقفهم من الاحتلال الغربي، كما سعت الرواية إلى الكشف عن علاقة اليهود مع المجتمعات العربية المسلمة، وقدمت صورة نمطية عن شخصية اليهودي مستندة في ذلك على أحداث تاريخية تعود للسنوات الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر وبداية الاحتلال الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: تمثيلات، اليهودي، الذات، الآخر، الرواية العربية

1. مقدمة:

شهدت الرواية العربية المعاصرة تنوعاً في موضوعاتها وثراءً في أفكارها المطروحة، حيث اهتمت بقضايا مختلفة حسب توجهات المبدعين وقناعاتهم الفكرية والإيديولوجية، ومن أبرز القضايا المطروحة في متوننا الروائية قضية الذات العربية وعلاقتها بالآخر المختلف، خاصة وأن العالم العربي يتميز بتداخل الثقافات وتنوع الهويات، ولأن اليهود يشكلون جزءاً من النسيج الاجتماعي للمجتمعات العربية، فقد سعى الروائي العربي إلى طرح أسئلة مرتبطة بعلاقة الفرد العربي مع الآخر اليهودي، في ظل الواقع الذي تعيشه المجتمعات العربية، والذي يشهد تزايداً للعدوان الصهيوني على الشعب الفلسطيني، ويعرف تبايناً في مواقف الدول العربية من مسألة التطبيع مع الكيان الصهيوني المحتل، لذلك سعت الرواية العربية المعاصرة إلى إثارة مسألة الوجود اليهودي في البلدان العربية، والبحث عن مدى تعايشهم مع المجتمعات التي يقيمون فيها، وهو ما فتح الباب أمام النقاد والباحثين لتقصي هذا الموضوع، ولعل من أهم الدراسات التي اهتمت بالموضوع كتاب "اليهود في الرواية العربية: جدل الذات والآخر" المنشور عام 2012 للباحث الفلسطيني عادل الأسطة والذي أقر فيه أن صورة اليهودي في الرواية العربية لم تخرج عن النمطية وكانت في أغلبها متأثرة بما كتب عنهم في الآداب العالمية، في حين أن الباحثة الجزائرية شهيرة بلغول في كتابها الموسوم "صورة اليهودي في الرواية المغاربية المعاصرة" الصادر سنة 2021، ترى بأن صورة اليهودي لم تستقر على شكل واحد بل كانت متباينة حسب رؤية كل مبدع وتوجهه الإيديولوجي والفكري، وتسعى هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على تمثيلات الآخر اليهودي في رواية "الديوان الإسبرطي" للروائي الجزائري عبد الوهاب عيساوي التي صورت جانباً من حياة يهود الجزائر مع نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. وانطلاقاً مما سبق تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن التساؤلات الآتية:

فيما تمثل موقف الرواية العربية من مسألة الآخر المختلف؟ وكيف تمثلت صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة؟ وما هي الصورة التي رسمها عبد الوهاب عيساوي عن اليهودي في رواية "الديوان الإسبرطي"؟

وللإجابة على التساؤلات المطروحة بشكل منهجي وموضوعي اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي، الذي يساعدنا في كشف ملامح اليهود في الرواية العربية، ورصد مواقف الروائي العربي من الآخر عموماً واليهودي بشكل خاص، كما يساعدنا على تحديد ملامح صورة اليهودي في رواية "الديوان الإسبرطي".

2. الآخر اليهودي في الرواية العربية المعاصرة

1.2 إشكالية الآخر المختلف في الرواية العربية:

يكون التعرف على الآخر في المجال الأدبي عبر ما يسمى علم الصورة أو ما اصطلح عليه بالصورولوجيا *imagologie*، الذي ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر في فرنسا قبل أن ينتقل إلى الساحة العربية، وقد تنبأ الناقد غنيمي هلال وقتها بأن ميدان الصورة "سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رواجاً في المستقبل، ذلك لأنه أيسرها منهجاً، وأوضحها معالماً، وأقربها في الوصول إلى غاية البحث"⁽¹⁾، حيث أضحت هذا الفرع من أهم الفروع التي تشغل عليها الدراسات الأدبية المقارنة، وهو الذي "يدرس من خلاله الوثائق المكتوبة وتقديم الشعوب بعضها لبعض"⁽²⁾؛ ويقصد بذلك العلم الذي يعنى بتتبع الصور التي ترسمها الأعمال الأدبية عن الشعوب الأخرى، فتساعدنا هذه الصور المكتشفة على رصد مواطن التشابه والاختلاف بين الثقافات، مما ينتج وعياً بالاختلاف وإدراكاً للتعددية التي تؤسس للوجود الإنساني، فيتم قبول الآخر بشكله المختلف والتعايش معه وفق خصوصياته، وبالتالي تترسخ ثقافة القبول وتلغى ثقافة الإقصاء، فيحدث التعايش في جو يسوده السلم، التسامح، والطمأنينة، وإذا كان "الاختلاف وجود لا يلغي ضرورات التعايش وتبادل المصالح، فهو نهج متى ما أحسن توجيهه وفُهمَت غاياته ومقاصده، بني عليه مفهوم العلاقة بين الأنا والآخر من منظور إنساني"⁽³⁾؛ ويعني ذلك ضرورة استغلال الاختلاف الطبيعي في بني البشر من أجل التكامل والتعاون لا من أجل التنافر والتصادم.

يذهب غنيمي هلال إلى أن الصورة الأدبية قلما تكون صادقة في تحديد ملامح الآخر، ويرى بأنها تختلط في كثير من الأحيان بمزاعم تكون بعيدة عن الحقيقة والواقع المعيش⁴، أما عن تشكل الصورة فمن "الواضح أن العوامل النفسية والاجتماعية تتضافر لخلق العناصر الهامة والأفكار العامة التي تلعب دورها في تكوين عقيدة شعب في شعب آخر"⁽⁵⁾ كما يبرز دور العامل السياسي وأثره في تشكيل صورة شعب ما في أدب شعب آخر حسب نوع العلاقة السائدة بينهما، لذلك تعرف الكثير من الصور نوعاً من التشويه السلبي أو الإيجابي حسب طبيعة الذات المنشئة للخطاب وما تحمله من نوايا اتجاه هذا الآخر.

وقد احتضنت الرواية مسألة تقديم الآخر كونها من أهم الأجناس الأدبية التي حاولت مواكبة المتغيرات التي يشهدها العالم، خاصة وأن ظهورها تزامن وتحول نمط الحياة من شكله التقليدي إلى الشكل الحديث والمعاصر، ولأن العالم اليوم يعتبر بمثابة قرية صغيرة تلتقي فيها جميع الثقافات والإيديولوجيات والهويات بفعل ما أحدثته تكنولوجيات العصر، فقد سعت الرواية العربية إلى الاندماج في هذا العالم الجديد عبر الغوص في أعماقه وإثارة قضاياها، وعملت على كشف خصوصية الذات وما يواجهها من تحديات، ولأن الأشياء تعرف بأضدادها، كان من الطبيعي أن يسعى الروائي

العربي لمحاولة فهم الآخر المختلف مما يسمح له باكتشاف خصوصية الذات العربية؛ أي أن اكتشاف الذات لا يكون إلا بالتعرف على الآخر.

تتعدد مواضع الآخر في السرد الروائي بتعدد مواقع الذات وخصوصياتها، "فالمرأة بالنسبة إلى الرجل آخر، واختلاف الهوية يجعل من يقابلك آخر، واختلاف اللغات تصنع آخرها، واختلاف اللون سمة تسم الآخر، واختلاف الدين يحدد آخره، فلا وجود للأنا دون الآخر، إنها حتمية وجودية"⁽⁶⁾؛ أي ثنائية المؤتلف والمختلف سواء ما تعلق بالجنس أو العرق أو اللون أو المعتقد، وقد تميزت المنطقة العربية بتنوع ثقافي وإيديولوجي ساهم في إثراء محددات الأنا والآخر، وإنتاج عدة هويات في حيز جغرافي واحد، وكانت العلاقة فيما بينها تتسم بالتوتر والتصادم تارة، وبالتسامح والتعايش تارة أخرى، حسب ما تفرزه السياقات التاريخية والسياسية.

أثارت مسألة الأنا والآخر إشكالية سردية متعلقة باختلاف وجهات النظر في زوايا الرؤية للآخر وتحديد ملامحه، لاسيما إذا كانت العلاقة بين الأنا وهذا الآخر غير مستقرة وتتميز بالندية التاريخية، ولأن "الوعي بالآخر قديم قدم التجربة الإنسانية"⁽⁷⁾ فسعت الرواية المعاصرة إلى محاولة الكشف عن الضدية القائمة في الحياة، وطرح أسئلة متعلقة بالأنا وعلاقتها بالآخر، بغض النظر عن طبيعة هذه العلاقة، فعند اكتشاف الآخر وتحديد خصوصياته يمكننا تجاوز ما يسمى بسوء الفهم الذي ينتج عن ضبابية الصورة، وفي هذا الصدد ترى ماجدة حمود أن بعض الروايات العربية حاولت "طرح إشكالية اللقاء بهذا الآخر، من دون أن تهتم بممارسة النقد الذاتي على تعاملها معه، أو في رسم صورته، فحدث أحيانا تشويه له ينبئ عن تشويه الذات أيضا"⁽⁸⁾؛ وتعني به أن أي محاولة لتشويه صورة الآخر أدبيا تنتج عن تشويه في الذات، فوجب على دارس الصورة أن يبحث عن الخلفيات التي يركز عليها المبدع في تحديده لملامح الآخر.

إن موضوع الآخر في السرد الروائي ليس محصورا في كونه إبداعا فنيا، بل يمثل مشكلة حضارية وآلية من آليات الحوار الثقافي بين متقابلين مختلفين، وقد اهتم الباحثون بهذا الموضوع بهدف إزالة الغموض الناتج عن سوء الفهم، وتصحيح الصور المغلوطة، مما يسمح بتقديم رؤية متوازنة قائمة على أساس موضوعي وبعيدة عن التعصب العرقي أو الإيديولوجي.

2.2 اليهودي في الفكر الروائي العربي المعاصر:

جاءت الكتابة عن اليهود في الرواية العربية متأخرة نوعا ما إذا ما قورنت بقضايا أخرى، ف"الروائيون والكتاب العرب أحجموا عن ذكرهم لسنوات طويلة، وربما اعتبروا أن ذكرهم خارج إطار الصورة النمطية التي غرست في أذهان العرب بعد الاحتلال نوع من الخيانة للوطن"⁽⁹⁾ نظرا للصراع التاريخي والذي أحيته الحركات الصهيونية المعادية لكل ما هو عربي وإسلامي، فالمتتبع للموضوع يكتشف أن المراحل الأولى للرواية العربية لم تشهد حضورا كبيرا للشخصيات اليهودية، واقتصر

ظهور بعض الشخصيات على لعب أدوار ثانوية في المتون الروائية، غير أن مطلع الألفية الثالثة شهد حضوراً مكثفاً لشخصية اليهودي، بل امتد الأمر لظهور شخصيات يهودية كأبطال في العديد من الروايات، وتعدى الأمر إلى بروز عدد من الروايات تحمل عناوين لها علاقة مباشرة باليهود، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: رواية "اليهودي الحالي" للروائي اليمني علي المقري، ورواية "حمام اليهودي" للروائي العراقي علاء مشدوب، ورواية "في قلبي أنثى عبرية" للروائية التونسية خولة حمدي، ويأتي ظهور هذه الروايات نتيجة "التحولات السياسية الكثيرة التي حدثت في الدول العربية، وأعقبها نوع من تقبل الآخر"⁽¹⁰⁾؛ حيث عرف العقد الأول من الألفية الجديدة تحولاً في علاقة الأنا العربية مع الآخر اليهودي، وهو ما أدى إلى نوع من الجرأة في التعامل مع اليهود أدبياً، حتى أضحت الكتابة عن اليهود ظاهرة الرواية العربية وموضتها في القرن الواحد والعشرين.

إن أكثر شيء تهتم به الرواية العربية في تحديد صورة اليهودي هو "التركيز على إبراز الملامح النفسية للشخصية، وإهمال الملامح الخارجية (الجسدية) في الكثير من الأحيان"⁽¹¹⁾، وربما يعود ذلك إلى الطابع المتقلب والمزاجي لشخصية اليهودي التي لا تستقر على وضع واحد، بل تتغير وفق الحاجة والمصلحة، ورغم أن صورتهم في المخيال الجمعي العربي تبدو "مشبعة بمذاقات وبألوان، بروائح وبأصوات، بالحن وباحتفاءات، بتبادل الحلويات وبتبادل الخدمات ولكنها مشبعة أيضاً بالخianات وبالدماء"⁽¹²⁾؛ فإذا كان التاريخ قد سجل بعض المعاملات الودية من أشخاص يهود، فإنه لم ينس تلك الخianات المسجلة على الجماعات اليهودية ضد المجتمعات الحاضنة لها، والتي أدت في كثير من الأحيان إلى سقوط ضحايا أبرياء.

بالعودة إلى الألفية الجديدة نجد أن أغلب الروايات العربية قد لجأت إلى تصوير حياة اليهود الشرقيين؛ أي أولئك الذي يقيمون في البلاد العربية رافضين الهجرة إلى الأراضي المقدسة، أو بلدان أخرى، وقد اختارت معظم هذه الروايات العودة إلى الأزمنة الماضية للبحث في علاقة اليهود بالمسلمين، ف"مثلت الذاكرة مصدراً لإعادة كتابة تاريخ اليهود روائياً"⁽¹³⁾، وذلك للتأكيد على أن الحساسية التي تعرفها العلاقة بين المسلمين واليهود والتوتر القائم بينهما لم تكن وليدة أحداث اليوم، إنما تعود جذورها لوقائع تاريخية مضت، وعلى "الرغم من تجذرهم التاريخي في المنطقة، فإنهم كانوا في حالة اتصال وانفصال دائمين مع باقي النسيج الاجتماعي، نتيجة تدخل عدة عوامل سياسية ودينية في بلورة تصوراتهم عن الهوية وعن الآخرين"⁽¹⁴⁾؛ مما أدى إلى وجود إشكالية في تعايشهم مع الآخر المختلف عنهم.

تأتي الكتابة عن اليهود في الرواية العربية لتلبية لحاجات اجتماعية ونفسية للمبدعين، من أجل إبراز التنوع الثقافي والإيديولوجي الذي يشكل المجتمعات العربية، والكشف عن مدى تقبل الإنسان العربي لمبدأ التعايش مع الآخر المختلف، حيث سعت هذه الروايات إلى "تشكيل مفهوم المواطنة عن

طريق إعادة بناء الذاكرة الوطنية تخيليا بغية تعزيز ثقافة تقبل الآخر المختلف والتصالح مع الذات⁽¹⁵⁾، كما تأتي الكتابة عن اليهود تلبية لغايات براغماتية للمبدعين سعيا منهم للرفع من نسبة المقروئية لأعمالهم الروائية بالنظر إلى أن المتلقي يميل إلى العناوين التي تثير مسائل حول الهوية والانتماء، كما تساهم هذه الأعمال في دعوة الآخر إلى محاولة كشف صورته في مرآة الذات والتي تدفعه لترجمة تلك النصوص الروائية، مما يفتح المجال أمام المبدعين للشهرة والحصول على جوائز إقليمية وعالمية، غير أن أغلب هذه الجوائز والتحفيزات ترعاها مؤسسات غربية لها مواقف غير بريئة في كثير من الأحيان اتجاه المجتمعات العربية المسلمة.

3. صورة اليهودي في رواية "الديوان الإسبرطي":

تعد رواية "الديوان الإسبرطي" لعبد الوهاب عيسوي واحدة من الروايات الجزائرية المعاصرة التي سعت إلى مساءلة التاريخ عبر طرح قضية متعلقة بنهاية الحكم العثماني واحتلال فرنسا للجزائر، وبحثت في الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة، وعن دور الطائفة اليهودية في احتلال الجزائر، وتم إثارة القضية في هذه المرحلة كدعوة لضرورة البحث في ثنايا الماضي من أجل رسم ملامح المستقبل في ظل التغيرات التي يشهدها العالم، والتحالفات التي تتشكل بين الدول، ونشير هنا إلى أن مساءلة النص الروائي "للتاريخ يعود في الأصل، إلى حتمية الشعور بالانتماء إلى السلف، وفي هذا الصدد كانت الحاجة ماسة للبحث في ثنايا الماضي بغرض التعرف على هوية الذات"⁽¹⁶⁾؛ أي البحث في ملامح الهوية وعلاقتها بالآخر المختلف، من أجل الحفاظ على ثقافة الذات وعدم الانصهار في ثقافة الآخر.

تشكلت الرواية من عدة شخصيات رئيسية ممثلة في الصحفي الفرنسي ديبون الذي سعى إلى كشف حقائق حول الجرائم التي يرتكبها الفرنسيون في حق الشعب الجزائري، ونجد شخصية كافيال العسكري الفرنسي الذي يهدف للتوسع ويروج لسياسة بلاده الاستعمارية، كما تحضر شخصية ابن ميار الذي يجسد المواطن الجزائري المثقف والذي يسعى للتغيير بالطرق السلمية، أما شخصية حمة السلاوي فكانت تمثل الإنسان الثوري الذي يؤمن بأن ما أخذ بالقوة لا يمكن إلا أن يسترد بالقوة، وكانت شخصية المرأة ممثلة في دوجة التي عانت من الاستبداد قبل أن ينقذها السلاوي، أما اليهود فمثلوا بشخصية ميمون الذي كان له دور في سقوط المحروسة، وشخصية لالة زهرة التي عرفت بتعاونها مع الجميع.

1.3 اليهودي ونمطية الصورة:

يعود بنا صاحب "الديوان الإسبرطي" إلى تاريخ احتلال فرنسا للجزائر، وذكرونا بالظروف السياسية والاقتصادية التي سبقت دخول الفرنسيين إليها، وكيف ساهم التجار اليهود في تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، خاصة عبر تعاملاتهم الربوية، حيث استغلوا فرصة انهيار الدولة في احتكار السلع، وعندما اشتدت الحاجة إليها تم بيعها للفرنسيين، وتسرد لنا الرواية التحول المفاجئ

الذي عرفته الطائفة اليهودية بمجرد احتلال فرنسا للجزائر، فيروي ابن ميار عن ذلك قائلا: "تذكرت أحياء اليهود، لم أعد أثق بهؤلاء الناس، كانوا يقاسموننا الخبز والملح ثم فجأة بعد دخول الفرنسيين بدأوا يهتفون لهم. الملل الصغيرة دائما تحاول إيجاد مكان لنفسها ولو بالخدعة"⁽¹⁷⁾، فاليهودي لا يؤتمن وليس أهلا للثقة حسب ما يعتقد سكان المحروسة؛ أي أن الود الذي يظهره اليهودي يبقى ظرفيا فقط، يرتبط بمدى حاجته للآخر، ويبرز مدى سعي الطائفة اليهودية إلى التمتع مع القوي من أجل ضمان مصالحها في لحظات ضعفها، حيث اختار أكثر اليهود وقتها الوقوف في صف الفرنسيين بعد أن لاحت بوادر انتصار الجيش الفرنسي، وسارعوا إلى عرض خدماتهم عليهم، فكانوا العين التي تراقب كل شيء.

وفي ذات السياق "تتفق أغلب الكتابات التاريخية أن يهود الجزائر كانوا من أوائل الذين رحبوا بالاحتلال الفرنسي، وأبدوا مشاعر الفرح والسرور للوضعية الجديدة التي أصبحت تعيشها الجزائر، ولم يهتموا في تلك الأثناء الصعبة إلا بالحفاظ على حياتهم وترتيب أمورهم بما يتناسب مع الحالة الجديدة"⁽¹⁸⁾، ورغم وجود تقارب في وجهات النظر بين الجالية اليهودية وبقية السكان حول التواجد العثماني في البلد، وسعيمهم لأن يحكم المغاربة بلدهم غير أنهم اختلفوا بعد دخول الفرنسيين، حين عمل أكثر اليهود كمرشدين للفرنسيين بحكم معرفتهم العميقة للمنطقة وسكانها، وهذا ما قام به اليهودي ميمون الذي عرض "نفسه كمساعد في فتحهم الجديد إذ كان أكثر الناس معرفة بالبلاد وأهلها، بينما كان السلاوي من الذين قاتلوا في سيدي فرج ثم سطوالي وأخيرا في الحراش"⁽¹⁹⁾؛ في وقت كان أهل البلد يقاومون في الساحات والموانئ كان اليهودي يبحث عن مكانته وسط الفرنسيين.

يؤكد صاحب الرواية على أن وجود اليهود في الجزائر كان له أثر كبير في انتصار الفرنسيين في المعارك واحتلالهم للجزائر، نظرا لقدرتهم على خلخلة تماسك المجتمع، والوشاية بأماكن المقاومين وإفشاء أسرارهم، وقد انتبه القائد العسكري كافيار إلى ذلك حين قال: "ما دام أولئك اليهود بها أعتقد أنه ليس من الصعب احتلال هذه الربوة"⁽²⁰⁾؛ أي أن المحتل تفتن بسهولة احتلال المدينة مادامت تعرف تواجد الطائفة اليهودية. وتساءل عبد الوهاب عيساوي عن سر تناقض الجالية اليهودية في مواقفها المتقلبة، فهم تارة يبدون تمسكهم بالمدينة حتى يظن الجميع أنهم يحبونها أكثر من سكانها الأصليين، وتارة أخرى تجد بعضهم "يسيرون أمام الجنود ويهتفون بحياة الفرنسيين"⁽²¹⁾، أي أنهم كانوا متقلبين حسب المصلحة والحاجة.

إن هذه المواقف التي اتخذتها الجماعات اليهودية، توحى لنا بأن الانسجام الذي تبديه هذه الجماعات مع المجتمعات التي تحتضنها لا يعكس الحقيقة، إنما هي مرحلة ضعف بسبب وجودهم كأقلية مما أجبرهم على الظهور بوجه المندمج، في حين يبقى اليهودي محافظا على طابعه الخسيس

والمخادع والربوي، كما تشير هذه المواقف بأنهم بائعو ذمم لا يؤتمن جانبهم، يميلون ويبدون ودهم لكل من يدفع أكثر، أو يضمن لهم مصالح أوسع.

أشار عبد الوهاب عيساوي إلى الخطأ الذي وقع فيه داي الجزائر حين قرب اليهود ولم ينتبه لخطر وجودهم بجانبه، خاصة وقد كان لهم دور في سقوط مدينة الجزائر، وتساءل قائلاً: "كيف يتردد على بيت الباشا أحد اليهوديين المتسببين في احتلال المحروسة"²²؛ فاعتبر أن الباشا كان ساذجا في تعاملاته مع اليهود، فالأصل هو أن يبقى اليهودي بعيدا عن المسؤولين، مهما أبدى من ذكاء أو حيل، ذلك أن الخديعة والغدر من الصفات المعروفة عن الإنسان اليهودي.

إن موقف اليهود من احتلال الجزائر لم يختلف عما ورد في كتب التاريخ حيث لم يقاوموا الاحتلال حتى في بداياته الأولى، وفر أكثرهم إلى الجبال واختاروا المكوث فيها تاركين السكان الأهالي وحدهم في جبهة المقاومة، وبمجرد سماعهم لأخبار فشل المقاومة واقترب الجيش من مدينة الجزائر انقلبوا فجأة ضد العرب والمسلمين وأسرعوا إلى الإعلان عن ولائهم للفرنسيين، ولو تتبعنا صورة اليهودي من منظور بقية الشخصيات الأخرى لوجدناها تجمع على رأي واحد، إذ لم تتوافق في نظرتها إلى الآخر إلا فيما يخص الآخر اليهودي، ولقد كانوا منبوزين ليس لاختلاف معتقدتهم، ولكن بسبب مواقفهم وسلوكياتهم، وهذا ما اتضح في نظرة شخصيات الرواية لهم، فرغم أن شخصيات الرواية قدمت من ثقافات مختلفة، وتحمل أيدولوجيات متنوعة، غير أنها بقيت ثابتة في نظرتها لليهودي، معتبرة إياه دخيلاً على المجتمع رغم المدة التي قضاها في هذا البلد.

4. صورة الرجل اليهودي في الرواية

نورد فيما يأتي أبرز الصور التي رسمتها رواية "الديوان الإسبرطي" عن الرجل اليهودي والمرأة اليهودية، وعلاقة اليهودي بالآخر:

أ. صورة الرجل اليهودي:

شاع في الفكر الإنساني العالمي عن اليهود تعاملاتهم الربوية، فلا يقدم اليهودي شيء دون مقابل، كما "تمثل المنفعة المبدأ الذي تنتظم وفقه حياة اليهود في علاقتهم بالأغيار، وهو ما تشير إليه أسفارهم في العديد من المواضع التي تستحضر محطات تاريخية مختلفة"⁽²³⁾ وقد وصف القائد العسكري كافيار طبيعة العلاقة بينهم وبين اليهود قائلاً أن: "ميولاتهم إلى المال تجعلهم يخدموننا مقابل فوائد دائمة"⁽²⁴⁾، ويفسر هذا الأمر بالطابع المادي للعقيدة التي يؤمن بها اليهود، حيث تطغى الماديات ويغيب الحديث فيها عن حياة الآخرة، وهو ما يبرر الجهود التي يبذلونها في سبيل التغلغل إلى مراكز النفوذ في العالم وتسخير كل الوسائل والطرق المتاحة من أجل تحقيق هذا الهدف.

إن أكثر صورة شائعة عن اليهودي أنه شخص "مستغل بلا خجل ومراب وكذاب ومنطو على نفسه"⁽²⁵⁾، فنجد أن الرواية حاولت أن تعكس هذه الصفات وقدمت صورة لليهودي المخادع وجسدت ذلك في شخصية ميمون الذي استعمل كل حيله الخبيثة من أجل الحصول على منصب مرموق، وهو ما نكتشفه في تصريح ابن ميار الذي قال أن ميمونا قد أوهم "بورمون بأشياء كثيرة حتى نصبه رئيسا علينا في مجلس البلدية، ثم حين حل كلوزيل نصبه على الأوقاف بما يقدمه له من ريعها ومع رحيل كلوزيل فقد افتضح أمره، وصارت مئات القضايا تتابعه في المحاكم"⁽²⁶⁾؛ فكانت صفة المخادع ملازمة لشخصية اليهودي عبر مختلف محطات الرواية وقد وصف ميمون بأنه "لا يختلف عن أي فرنسي آخر"⁽²⁷⁾ في علاقته مع أبناء البلد.

تحضر أيضا صورة لليهودي الجبان والذليل الذي يخضع للآخرين ولا يرد الضيم عن نفسه وأهله، ومما ورد على لسان السلاوي قوله: "كلما تأملت سلوكهم أدرك أن ما يحمله هؤلاء اليهود من خنوع، كان أكثر مما يحمله المور، الذين يصرفون سلطة الأتراك عليهم تجاه اليهود وأيضا تجاه نسائهم"⁽²⁸⁾، كما رسمت صورة لليهودي الانتهازي الذي يسعى إلى التعاون مع مختلف الجهات من أجل ضمان مصالحه ومصالح طائفته حتى وإن كان يكن الحقد والعداء لهذه الجهات، ومن ذلك أن "ميمونا لا تنقصه الحيلة، لو أغلق عليه باب، فلديه آلاف من الأبواب سيطرقها"⁽²⁹⁾، وتحضر صورة لليهودي التاجر ومحب المال في شخصية ميمون الذي كان مهوسا بالتجارة وجمع المال، ف"لا يتخلص من عقلية التاجر حتى وهو يناقش أمور السياسة"⁽³⁰⁾، ونجد أن الرواية قد أوضحت الجهود التي يبذلها اليهود في سبيل الإمساك بزمام الأمور، وكيف استطاعوا التأثير على القرارات السيادية وقتها، ف"خمسون عاما أو أكثر بقليل، كانت كفيلة بأن يمسخ هؤلاء اليهود كل شيء"⁽³¹⁾، بالنظر لاحتكارهم التجارة وسيطرتهم على رؤوس الأموال. كما تحضر صورة اليهودي الخائن، وتتجسد في اليهوديين الذين سرقا الأموال وفرا إلى فرنسا، وتتجلى هذه الصورة أيضا في الأموال التي كان ميمون يأخذها من الأغنياء، مقابل إيهامهم بأن يرجع لهم ضياعهم المسلوبة⁽³²⁾.

ب. صورة المرأة اليهودية:

أما المرأة اليهودية فأكثر ما يعرف عنها اندفاعها نحو الاندماج مع الآخر، حيث كانت تمثل "نموذجا معارضا، نموذج يجمل سلوكا، وتبدو المرأة اليهودية ذات جمال مدهش، وامرأة مليئة بالحب تضحي بنفسها من أجل الآخرين"⁽³³⁾ وقد جسدت شخصية لالة زهرة هذه الصفات كونها امرأة منفتحة على مختلف الثقافات وتتميز بمعاملاتها الحسنة مع الآخرين، حيث كان بابها مفتوحا للضعفاء وهي التي واست دوجة في محنتها وساعدتها عند الحاجة، وتبدو لالة زهرة متمسكة بهويتها اليهودية كما تفتخر بانتمائها لليهود الجزائري، ومما ورد على لسان دوجة أن لالة زهرة كانت تصر دائما

على "أن أجمل الأغاني التي تحيي أعراس المحروسة هي ألها اليهود"⁽³⁴⁾: أي أن اليهود كانوا يحتلون جانبا مهما من الثقافة المحلية زمن الدولة العثمانية في الجزائر.

من خلال شخصية لالة زهرة تبدو المرأة اليهودية أقل حدة وخبثا مقارنة بالرجل اليهودي، حيث بدت طيبة، ومتعايشة، ولا تحمل أي ضغينة أو سوء، كما ساهمت بشكل كبير في نقل الثقافة اليهودية وفنونها إلى سكان المحروسة، فكانت الجسر الواصل بين أهل الملتين.

ج . علاقة اليهودي بالآخر:

"إن المعاني والمقاصد المحملة بها متوننا السردية لا يمكنها أن تؤتي أكلها إلا إذا اقتربنا أكثر من إشكالية العلاقة التي تربط الأنا الجزائري بالآخر"⁽³⁵⁾، وبالعودة إلى علاقة اليهود بالمسلمين في الرواية نكتشف أن طول المدة التي تواجدت فيها الطائفة اليهودية في البلد لم تشفع لهم بالاندماج، وأشار صاحب الرواية إلى التحفظ الذي كان يبديه بعض السكان اتجاه اليهود، فأوضح أن اليهود غامضون، وجاء على لسان كافيار أن "المسافة التي يتركها المور بينهم وبين اليهود، لا تسمح لهم بفهم دواخلهم بشكل كاف"⁽³⁶⁾: حيث بدت الشخصيات اليهودية غير مفهومة ومتقلبة المزاج، ومن الصفات السلبية التي لحقت بهم أن "اليهود دائما يعكرون الحياة في مدينتهم، يجتهدون حتى تصبح لهم حظوة عند أي باشا جديد. هم يتجنبون القتال ويحبون رؤية غيرهم يتقاتلون. يشبهون بالضباع التي تأتي نهاية المعركة لتلتقط الجيف"⁽³⁷⁾، ولعل السبب في ذلك هو جبنهم، والذي يدفع بهم إلى ممارسة مختلف أساليب التآمر والغدر والخيانة، فاشتهر عنهم نزوعهم نحو بث الفوضى وخلق الفتن، بغرض استغلال الوضعية الجديدة التي تنجم عن الصراع.

اتسمت حياة اليهود في الجزائر أثناء الحكم العثماني وضعا خاصا، فرغم اسنادهم ببعض المسؤوليات كالإشراف على صك النقود وتبديل العملات، إلا أن صفة الذمي صاحبهم طوال فترة الحكم العثماني، حيث كانوا ممنوعين "من حمل السلاح، أو اقتناء الخيول، ليس لهم الحق في لباس ملون، لا يخرجون من المدينة إلا من باب واحد"⁽³⁸⁾، وهذه الوضعية تفسر التذمر الذي كان يبديه اليهود من الوجود العثماني في الجزائر، وتبرر سعيهم للتخلص من داي الجزائر، أما علاقتهم بالفرنسيين فلم تخرج من سياق العبد مع سيده، فرغم ما قدمه اليهود للاحتلال من تعاون وإسناد، إلا أن وضعهم كان أكثر تعقيدا من السابق، حين تلقوا معاملة سيئة من طرف الفرنسيين وكانت فرنسا تعاملهم باحتقار.

عرفت الجماعات اليهودية عبر مختلف مناطق العالم تمركزا في أحياء منعزلة عن الآخرين، ويفسر هذا الأمر باعتقادهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أعلى مرتبة من الآخرين، وتظهر الرواية هذه الانعزالية في قوله: "في إسبرطة يخضع اليهود فيما بينهم إلى قوانينهم لا إلى قوانين المدينة، إذ يتولى إدارتهم رجل من أبناء الطائفة، يعينه الباشا، ويسمح لهم بممارسة التجارة، ولكن الضرائب

مضاعفة⁽³⁹⁾: أي أنهم لا يندمجون بصفة كلية مع المجتمعات التي يقيمون بينها، وكانت صفة الانغلاق السمة البارزة لعلاقتهم بالآخرين.

أظهرت الرواية القيم الإنسانية النبيلة التي يتمتع بها المجتمع الجزائري حين قابل المسلمون إساءة اليهود بالإحسان، وكشفت عن مدى تقبل الجزائري لمبدأ التعايش مع الآخر المختلف، فرغم الموقف المعادي الذي أبداه اليهود بعد احتلال فرنسا للجزائر، إلا أن أبناء البلد دافعوا عن بقائهم، وأصرروا على "ألا تحوي المعاهدة على بند طرد أحد من المدينة، بل سيعيش الجميع فيها بسلام، المغاربة وبنو عثمان وحتى اليهود"⁽⁴⁰⁾. وقد تجلّى في الرواية التنوع الثقافي والعرق الذي عرفته الجزائر عبر تاريخها، حين كانت ملتقى لمختلف الثقافات، ومسرحاً للتعايش بين الأديان والهويات.

أكد صاحب الديوان الإسبرطي على أن إقامة اليهود في البلدان العربية المسلمة لا تكفي ليحمل هؤلاء اليهود هوية ذلك البلد دون اندماج كلي في مجتمعه، فدون مشاركة لأهل البلد في همومه وأفراحه، ودون إقامة روابط اجتماعية حقيقية مع بقية السكان لا يمكن أبداً أن تحمل صفة المواطنة الحقيقية لذلك البلد، واعتبر عبد الوهاب عيساوي أن حصر الهوية في الوطن وإخراج اللغة والمعتقد والعرق عنها تعد رؤية ضيقة نظراً لأن مكونات الهوية هي سمات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر.

5. خاتمة:

نأتي في ختام هذه الورقة البحثية لنقول: أن مسألة الآخر المختلف في الرواية العربية لا تنحصر في كونها عملاً إبداعياً، بل تعد مشكلة ثقافية مرتبطة بتفاعل الثقافات في الوطن العربي، واحتكاك الذات العربية مع الغير، كما تشكل آلية من آليات الحوار الذي يساهم في التقريب بين الشعوب وإزالة الغموض الناتج عن سوء الفهم. وقد سعت الرواية العربية المعاصرة إلى طرح قضية اليهود بهدف الكشف عن الخلفيات التاريخية والسياسية التي ساهمت في تشكيل التصورات العامة عن اليهود في المخيال الذهني للشعوب العربية المسلمة.

إن إثارة عبد الوهاب عيساوي لمسألة اليهود كانت من أجل إحياء المسكوت عنه في الأعمال الروائية العربية، حيث حملت دعوة إلى إعادة قراءة تاريخ هذه الأقلية واستنباط مواقفها السياسية والإيديولوجية تجاه الأوطان التي تقيم بها، وردا على الداعين لتجاوز التاريخ في تحديد ملامح الآخر.

ركزت "الديوان الإسبرطي" على كشف الحيل التي تلجأ لها الجماعات اليهودية من أجل الحصول على مبتغاها، كما بينت الصفات التي تطغى على طبائعهم في تعاملاتهم مع الآخرين، وقد ارتبطت صورتهم في الرواية بالطابع النمطي التقليدي، وتمثلت في صورة اليهودي الجبان والمخادع والانتهازي، وأما المرأة اليهودية قدمت في زي المرأة المندفعة والمضحكة من أجل الآخرين.

جاءت صورة اليهود في رواية الديوان الإسبرطي كتأكيد على أن فكرة التعايش مع عدو دائم فكرة واهمة، خاصة وأن التاريخ يسجل الكثير من السقطات التي وقعت فيها الجماعات اليهودية أثناء المراحل التي استقروا فيها بين العرب والمسلمين.

كشفت الرواية أن المخيال الجمعي العربي يختزل صور سلبية عن اليهود بسبب مواقفهم السلبية من القضايا الانسانية العادلة، وكذا بسبب بعض الميزات التي حصلوا عليها من طرف الاحتلال مقارنة بالسكان الأهالي.

ساهمت العديد من العوامل التاريخية والسياسية في تنميط صورة اليهود، وهذا ما تجلى بوضوح في رواية "الديوان الإسبرطي"، خاصة ما تعلق بنقضهم للعهود وإثارتهم للفتن والأزمات، ما جعل منهم فئة منبوذة لدى مختلف الثقافات والشعوب.

الهوامش:

¹ غنيبي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط 9، 2008، ص: 331

² عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986، ص: 72

³ حسن النعمي، بعض التأويل: مقاربات خطاب السرد، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، ط 1، 2013، ص: 9

⁴ ينظر: غنيبي هلال، الأدب المقارن، ص: 332

⁵ المرجع نفسه، ص: 333

⁶ حسن النعمي، بعض التأويل: مقاربات خطاب السرد، ص: 9

⁷ المرجع نفسه، ص: 9

⁸ ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، عدد: 398، 2013، ص: 32

⁹ عاتكة زياد الحصان، تصاعد صورة اليهودي في الرواية والدراما العربية، مجلة أفكار، عدد: 347، آذار 2020، وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، ص: 12

¹⁰ المرجع نفسه، ص: 13

¹¹ شهرة بلغول، صورة اليهودي في الرواية المغربية المعاصرة، دارخيال، الجزائر، ط 1، 2021، ص: 266

¹² الطاهر لبيب، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1999، ص: 500

¹³ شهرة بلغول، صورة اليهودي في الرواية المغربية المعاصرة، ص: 267

¹⁴ المرجع نفسه، ص: 7

¹⁵ المرجع نفسه، ص: 266

¹⁶ فتحي بوخالفه، التجربة الروائية المغربية، دارعالم الكتاب الحديث، ط 1، الأردن، ص: 29

- ¹⁷ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص: 53
- ¹⁸ آمال معوشي، يهود الجزائر والاحتلال الفرنسي (1870-1830)، ص: 25
- ¹⁹ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 59
- ²⁰ المصدر نفسه، ص: 196
- ²¹ المصدر نفسه، ص: 215
- ²² المصدر نفسه، ص: 216
- ²³ شهيرة بلغول، صورة اليهودي في الرواية المغاربية المعاصرة، ص: 101
- ²⁴ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 196
- ²⁵ عادل الأسطة، اليهود في الرواية العربية: جدل الذات والآخر، الرقمية للنشر، رام الله- فلسطين، ط1، 2012، ص: 9
- ²⁶ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 59
- ²⁷ المصدر نفسه، ص: 226
- ²⁸ المصدر نفسه، ص: 196
- ²⁹ المصدر نفسه، ص: 258
- ³⁰ المصدر نفسه، ص: 340
- ³¹ المصدر نفسه، ص: 53
- ³² ينظر: عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 283
- ³³ عادل الأسطة، اليهود في الرواية العربية: جدل الذات والآخر، ص: 11
- ³⁴ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 165
- ³⁵ بشير بويجرة محمد، الأنا، الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، دار تفتيلت، الجزائر، 2013، ص: 21
- ³⁶ عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، ص: 195
- ³⁷ المصدر نفسه، ص: 195
- ³⁸ المصدر نفسه، ص: 195
- ³⁹ المصدر نفسه، ص: 195
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص: 57